

النحو العربي بعد القرن الرابع الهجري

* د. محفوظ ذهبي

جامعة يحيى فارس ، المدينة، الجزائر.

البريد الإلكتروني: mahfoudhdeh@gmail.com

ملخص البحث

يُبرز هذا البحث المسار الخطير للنحو العربي بداية من القرن الرابع الهجري، وذلك جراء اعتماد النحاة المتأخرين على المنطق في مؤلفاتهم، وكذا تحريفهم من جوهر المفاهيم النحوية التي جاء النحاة الأولون وغير ذلك من التجاوزات التي طالت النحو العربي. ويضاف إلى ذلك تحامل بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بالمنهج والنظريات الغربية على النحو العربي الأصل ودعوتهم إلى إسقاط مفاهيمه العلمية القيمة.
الكلمات المفتاحية: النحو العربي، المؤلفات النحوية، التراث العربي.

Abstract :

This article sheds light on the dangerous course of Arabic grammar starting from the fourth century ah, due to the dependence of grammarians on the logic in their books, in addition to distorting the grammatical concepts and so on. Then came the role of some contemporary scholars who were influenced by western theories and called for abandoning the grammatical concepts brought by the early grammarians.

Key words: Arabic grammar, grammar books, Arab heritage.

مقدمة

بعد تفطن العلماء العرب الأولون إلى الظاهرة اللّحن التي بدأت تنتشر وتستفحل على ألسنة الناطقين جراء اختلاطهم بالأعاجم، خرجوا إلى البوادي وشافهوا العرب الفصحاء الذين بقوا على سليقتهم لبعدهم عن الحواضر، فجمعوا مدونة ضخمة ضمت الكلام العفوي، والأشعار والقصص والأمثال... إلخ، ومن ثمّ قاموا باستقراءها لوضع ضوابط اللغة العربية، فأبدعوا بذلك مفاهيم جديدة تنبئ بمدى عبقريتهم وآراء تُضاهي أحدث ما توصل إليه البحث اللساني الحديث.

وبعد أن أُغلق باب الاجتهاد في نهاية القرن الرابع الهجري ظهر جيل آخر من النحاة عمد إلى تصفح مؤلفات من سبقهم من النحاة أمثال الخليل، وسيبويه والأخفش الأوسط، وأبي علي الفارسي، وابن جني وغيرهم، وحاولوا تقديم رؤية جديدة لضوابط اللغة العربية غير أنّهم لم يوفقوا في ذلك، وجاءت مؤلفاتهم صورة مشوهة ومحرّفة لجوهر المفاهيم النحوية الأصيلة فجنوا بأعمالهم تلك على التراث العربي عامة والنحو العربي خاصة.

لذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نكشف عن تعسف النحاة المتأخرين في حق النحو العربي الأصيل، والذي تواصل مع بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بالنظريات و المناهج الغربية.

1. التراث العربي الأصيل

دعا بعض الباحثين إلى ضرورة التخلص «من النظرة التجزيئية الشائعة والمنتشرة بين الباحثين عن التراث النحوي والبلاغي والأصولي... والتخلي عن تقسيمه إلى "مناطق" أو "قطاعات" متميزة؛ قطاع مقبول يستحق الدرس، وآخر مردود لا يستحق الدرس، قطاع حي نربطه بحاضرنا، وآخر ميت نقطع صلاته، لأنها نظرة خالية من القيمة العلمية، وتتخذ مواقف إيديولوجية من التراث في

اعتقادهم»¹، فالتراث العربي وفق هذه النظرة هو على درجة واحدة من القيمة العلمية، وتقسيمه إلى درجات هو تعسف في حقه.

غير أنّ الحقيقة التي فاتت أولئك الباحثين أنّ «... هناك تراثا وتراثا! ... [ف] التراث العربي في العلوم الإنسانية عامة واللغوية على الخصوص ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة² والإبداع، ولذا اتجه الحاج صالح إلى إعادة قراءة التراث الأصيل والبحث عن خباياه، لا حبا للقدم في ذاته، ولا محافظة من أجل المحافظة، ولكن وعيا بقيمة المنجز، وبطبيعة الطفرة التلقائية المفاجئة التي أحدثتها "سببويه" وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان، والتي أظهرت لنا القدم جديدا والجديد قديما»³. وبهذا يتضح أنّ التراث العربي ليس على درجة واحدة من الأصالة والإبداع، فهناك تراث عربي أصيل أبدع أصحابه مفاهيم علمية جديدة، وهناك تراث عربي غابت فيه الأصالة وطغى عليه التقليد والجمود.

ويقصد بالتراث العربي الأصيل ذلك التراث الذي خلفه «... العلماء الأولون الذين عاشوا في زمان الفصاحة اللغوية العفوية وشافهوا فصحاء العرب وقاموا بالتحريات الميدانية الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شهدها تاريخ العلوم اللغوية وتمكنوا من ضبط أنجع الطرق التحليلية لوصف المحتوى اللغوي لهذه المدونة. ثم استنباط القوانين النحوية والصرفية البلاغية منها مع تعليل

1- محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح "قراءة في بعض النماذج"، مجلة الجمع الجزائري للغة العربية، ع25 السنة الرابعة عشرة، رمضان، 1438هـ، جوان، 2017م، ص. 18.

2- المقصود بالأصالة أن يكون الشيء أو الإنسان مبدعا مهما كان عصره؛ أي أن لا يكون نسخة لغيره بالنسبة إلى الأفكار التي ينتجها، فالأصيل هو من ليس نسخة لغيره مهما كان الزمان، وقد تكون أصالة في زمن قديم وقد تكون أصالة في زماننا هذا. (بشير ابرير، أصالة الخطاب في اللسانيات الخيلية الحديثة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع07، 2005م، ص. 03)

3- محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، ص. 18.

منطقي عجيب لكل ما شذّ عن هذه القوانين، ثم صياغة رياضية لمجموع هذه الأوصاف والتعليقات مما لا يقل قيمة عمّا هو موجود الآن في ميدان العلوم اللسانية»¹.

أما المؤلفات التي ظهرت بعد القرن الرابع الهجري فهي تراث ليس بأصيل، وذلك لأنّ من جاؤوا بعد الرعيل الأول من العلماء «... كانوا عالة عليهم لأنّهم ظهوروا في العصور التي دخل فيها الفكر العربي في سبات يكاد لا ينتهي»². لذا فإنّ «بعضهم ضيق حدود النحو الواسعة، واستبدلوا مفاهيم القدماء الإجرائية النشطة بمفاهيم أخرى جامدة»³، «و لا بدّ من استثناء بعض العباقرة وكانوا شواذ وغرباء في عصرهم كالرضى الاسترابادي في القرن السادس»⁴. أما باقي معاصريهم فلم يفهموا ما جاء به سيبويه وغيره مما اضطرهم إلى استبدال مفاهيم وتضييق حدود أخرى.

ولهذا فإنّ التراث الذي ينبغي أن ننظر فيه «هو التراث العلمي اللغوي الأصيل، الذي تركه أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا زمن الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وقاموا بالتحريات الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شاهدها تاريخ العلوم اللسانية»⁵، وأبدعوا مفاهيم علمية قيمة دقيقة تختلف صورتها عن تلك التي جاء بها المتأخرون.

هذا وعلى الدارس للتراث العربي أن يتعد عن الأحكام و المستبقة و «أن يتجرد ... من كل فكرة أو نظرة مُسبقة عندما يحاول أن يفهم مقصود القدامى في نص من نصوصهم، وخصوصا أولئك الذين بُعد عهدهم عنا وحال دون فهمهم عصور الانحطاط الحالكة الطويلة التي أغلق فيها

1- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (2007)، المؤسسة للفنون المطبعية الجزائر، د ط، ج 1، ص. 169.

2- نفسه، ص. 169.

3- محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن، ص. 17.

4- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، ص. 169.

5- محمد صاري، المرجع السابق، ص. 17.

باب الاجتهاد وجمدت فيها الأفكار، بل زاغت عما كانت عليه وصارت أفكارا وتصورات غير تلك التي أبدعها علماؤنا الأولون»¹.

2. منهج النحاة المتأخرين في مؤلفاتهم النحوية

نُهج النحاة المتأخرين في مؤلفاتهم نُحجا جديدا وتوسلوا بأدوات غير تلك التي استعان بها من قبلهم، فكان ضرر مؤلفاتهم أكثر من نفعها، ومن أبرز مميزات تلك المؤلفات:

1.2. الاعتماد على المنطق

طرح الحاج صالح تساؤلا عن المذهب الذي أساسه نحكم على الكلام بالخطأ، إذ يقول: «يجب الآن أن نتسأل عن هذا الذي يُسميه الناس خطأ ولحنا ما هو؟ وبالنسبة إلى أي مذهب في الكلام وأي أصل يقال إنه لحن، وعلى أي أساس يحكم على هذه العبارة بأنها خطأ؟ هذه الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا هي جدّ ضرورية إذ كثرت في زماننا هذا -وفيما قبل اليوم أيضا- التخطئات المشبوهة كتلك التي تعتمد على المنطق أو كتلك التي أثارها المتأخرون من النحاة الذين لم يشافهوا فصحاء العرب ولم يأخذوا منهم علمهم مُباشرة»².

فالكثير من النحاة المتأخرين بالغوا في التخطئة لا لشيء إلا لأنّ المنطق يفرض أن يكون الكلام على نحو معين، وبذلك «قد منعوا الكثير من العبارات وذلك مثل ما قاله ابن هشام من امتناع دخول "قد" على فعل منفي ولم يوفق في ذلك لا من حيث السماع ولا من حيث القياس. أما السماع فقد ورد في الشعر. أما القياس فقد توهم ابن هشام أنّ "قد" التي تدخل على المضارع هي تلك التي تدخل على الماضي وليس مثلها إذ الأولى هي بمعنى "ربما". أمّا الثانية فلا يجوز أن يفصل بينها وبين الفعل الماضي لأنّها من لوازمه وهي بمنزلة أدوات النفي وتقابلها "لما" الجازمة. (ولهذا لا

1- عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص. 17 - 18.

2- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 70 - 71.

يجوز الفصل بين لما والفعل المجزوم»¹. وللأسف فإنّ الشائع اليوم في المقررات الدراسية أنّ قد التي تدخل على الفعل الماضي هي ذاتها التي تدخل على المضارع، وسبب ذلك هو اعتماد التربويين على الكتب الرائجة في عصر الانحطاط.

فواضح أنّ اعتماد المنطق هو تعسف في التخطئة، وإلاّ «لماذا يريد الواحد منا أن نقول "في ضوء كذا" ولا نقول "على ضوء كذا"»². وإذا تعسفنا هذا التعسف كان يجب أن تطرح باسم المنطق المثات من العبارات الفصيحة التي سمعت من فصحاء العرب مثل: أدخلت القلنسوة رأسي. وهذا يدخل فيما يسميه سيبويه بسعة الكلام»³، ومن ذلك أيضا ««قولهم: أدخل فوه الحجر ... فهذا جرى على سعة الكلام»⁴ والجيد "أدخل فاه الحجر"»⁵، فعبارة "أدخل فوه الحجر" هي خاطئة استنادا إلى المنطق فالفاعل حلّ محلّ المفعول به، إلاّ أنّ ذلك التصرف يدخل في ما يسميه سيبويه بسعة الكلام، ف «اللغة لا يمكن أن تحدها هذه الحدود الضيقة التي رآها بعض النحاة»⁶. فكل كلام جاء على غير أصله يدخل في سعة الكلام إذا لم يمس بنظام اللغة.

والمتصفح لكتاب سيبويه -بحسب الحاج صالح- يجد أنّه «قد أفاض (...) في وصف الضروب الكثيرة من الكلام التي جاءت مغيرة عن الأصل في سعة الكلام وذلك لأنّ مثل هذا الاتساع يمسّ

1- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 72.

2- والحق أنّ هذا التعبير مقتبس من اللغات الأوروبية ونقل إلى العربية في عصرنا الحاضر ومقصودهم هو الاعتماد على الضوء المسلط على الشيء. (عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، ص. 165).

3- عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص. 71.

4- يُقصد بسعة الكلام ما يصيب الكلام من الحذف أو التقديم والتأخير وإرادة معنى آخر غير المعنى الموضوع للفظ وهو المجاز، ويدخل في سعة الكلام أيضا الضروب الكثيرة من الكلام التي جاءت مغيرة عن الأصل كإقامة الفاعل مقام المفعول به. (عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص. 116).

5- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية، الجزائر، د ط، ص. 118.

6- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، ط 6، الجزائر: 2011، ص. 138.

بنية اللفظ ويؤدي إلى جواز بعضه وعدم جواز غيره»¹، ف«تغيير البنية الذي يقع بنقل الوحدة من موضع إلى موضع آخر ... يمس الوضع ويخص تصرفه»² وقد يكون غير جائز إذا خرق نظام اللغة. ويضاف إلى ما سبق أنه وجدت أساليب في التراث العربي «مخالفة للقياس، أو ما يسمى بالعدول عن المتواتر، ولم نسمع عالماً من القدماء أنه صنفها ضمن الأخطاء. ومع هذا الخروج ووجود ما يسمى بالرفض والإقصاء لمؤسسة الشذوذ والتمرد ومجاوزة العمل القياسي اللغوي، إلا أن همّ اللغويين لم يكن وراء السعي لتصحيح ذلك أو مجابهة الخطأ، ولذلك كانت حرية كثير من اللغويين غير محدودة التأويل اللغوي والاشتقاق الدلالي وما يتعلق بأمور التأويل. ولم ينظر إلى ذلك الخروج على أنه ترسيخ لقبول الخطأ إلا عند النحاة المتأخرين، وكذا في العصر الحديث حيث نظر بعض النحاة إليه باشمئزاز، وعدّ أمراً يجب محاربته وردّ اللغة إلى صوابها»³. لذا فكان الأجدر بالنحاة المتأخرين ومن نهج نهجهم من المعاصرين أن يجعلوا البحوث الميدانية سندهم في الأحكام بدل رسم حدود وهمية عمادها المنطق، فهأهم النحاة العرب الأولون - وهم الأولى بالخطئة والتصويب - حاولوا تفسير خروج بعض الأساليب عن سنن العرب في كلامها - والشواهد في كتاب سيبويه كثيرة - في ما ساهم في رقي البحث اللغوي العربي.

إنّ المعيار الذي يجب نحتكم إليه في الحكم على العبارات بالخطأ «أو بالأحرى المسلك والهداية التي يجب أن يحتذي بها المتكلم إذا قال بأنّه يتكلم بالعربية فهي لا محالة مذاهب العرب في كلامهم لا كل العرب، بل أولئك الذين ارتضيت عربيتهم لبقائهم على سليقتهم وعدم اكتسابهم العربية كلغة

1- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص. 119.

2- عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، (2016)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، د ط، ص. 156.

3- صالح بلعيد، المرجع السابق، ص. 147.

ثانية بل حصولهم عليها منذ نشأتهم من محيطهم غير المتأثر بلغات أخرى»¹. ويقصد بهم فصحاء العرب الذين عاشوا زمان الفصاحة اللغوية وشافهم العلماء العرب الأولون الذين «قاموا بالتحريات الميدانية الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شهدها تاريخ العلوم اللغوية وتمكنوا من ضبط أنجع الطرق التحليلية لوصف المحتوى اللغوي لهذه المدونة. ثم استنباط القوانين النحوية والصرفية البلاغية منها مع تحليل منطقي عجيب لكل ما شذ عن هذه القوانين، ثم صياغة رياضية لمجموع هذه الأوصاف والتعليقات مما لا يقل قيمة عما هو موجود الآن في ميدان العلوم اللسانية»². أما الذين عاشوا بعد زمان الفصاحة اللغوية وخلطوا الأعاجم فالعلماء العرب لم يحتجوا بكلامهم لفساد سليقتهم.

2.2. قطع الصلة بين القواعد وكلام العرب

لم يقف النحاة المتأخرون عند حدّ اعتماد المنطق في مؤلفاتهم، بل إنّ هذه الأخيرة «تتماز كما لاحظها ابن خلدون- بقطع الصلة بين القواعد وبين كلام العرب بحيث يأتي لإسناد القاعدة الشاهد الواحد وغالبا ما يكون بيت شعر فقط»³. - فمثلا، نجد ابن هشام في كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" فمثلا، نجد ابن هشام في كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" قد أكثر من الاستشهاد بالأبيات الشعرية، كما أنّه يكتفي بالشاهد شعري في تمثيله للقواعد النحوية، ويتجسد ذلك -مثلا- في حديثه "إما المكسورة المشددة" إذ يقول: «قد تفتح همزتها، وقد تُبدل ميمها الأولى ياءً، وهي مركبة عند سيبويه من إنّ وما، وقد تحذف ما كقوله:

1- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 71.

2- نفسه، ص. 169.

3- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 169 - 170.

سَقَّتْهُ الرِّوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدَمَا¹.

وبهذا يكون ابن هشام وغيره من النحاة المتأخرين قد أقصوا اللغة العفوية التي تداولها السليقيون في حياتهم اليومية بمبالغتهم في الاعتماد على الشواهد الشعرية، وكأنهم يرون الفصحى لغة أدب لا لغة تخاطب يومية، «وهذا ما أدّى بالفصحى أن تنزوي في الخطاب الأدبي، وتبتعد عن المشافهة اليومية. وقد حدث ذلك في عصر الضعف؛ لأنّ همّ النحوي آنذاك هو الإعراب فقط، وأهمّل المستوى العفوي وهو صحيح، ووضع كل خروج عن المعيار لحن، وكأنّه يملك كل اللسان العربي»².

3.2. التركيز على الجانب الشكلي من اللغة

لم يعجز النحاة المتأخرون فقط في فهمهم لجوهر التصورات التي جاء بها من سبقهم من النحاة، بل لم يوفقوا أيضاً السير على منهجهم في تحليلهم للغة، إذ إنهم درسوا اللغة دراسة صورية شكلية، في حين أنّ «اللسان وضع واستعمال؛ أي نظام من الأدلة الموضوعية لغرض التبليغ، واستعمال فعلي لهذا النظام في واقع الخطاب ... [و] الاختصار على أحد هذين الجانبين من قبل الباحث اللغوي أو المربي خطأ فاحش ذو عواقب وخيمة... وكذلك هو الأمر في الاختصار على ضرب الاستعمال دون غيره»³. «وهذا هو الذي حصل بالفعل منذ أن تعلق الناس بالقواعد في ذاتها مقطوعة عن غيرها إلا بما لا يشفي من الشاهد الواحد أو الشاهدين -ومن الشعر فقط غالباً- أو بالنصوص وحدها لا يرى فيها شارحها إلا المعاني مقطوعة من اللفظ الذي يدل عليه (مع ما يندرج فيه من انتظام له السهم الأكبر في الدلالة على تلك المعاني)»⁴. فالمتمعن لمؤلفات النحاة المتأخرين يجد أنهم

1- ابن هشام الأنصاري، مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (1991)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج1، ص. 71.

2- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، ص. 160.

3- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 175.

4- نفسه، ص. 176.

يعرضون القواعد النحوية ثم يمثلون لها بأبيات شعرية في غالب الأحيان بعيدا عن الجانب الاستعمالي للغة في واقع الخطاب.

وفي مقابل ذلك نجد أنّ مؤلفات علماء العربية الأولون ضمت الخطابات العفوية التي سمعوها من أفواه السليقيين، كما ضمت الأمثال والحكم والقصص والأشعار وغير ذلك، فهم فلم يكفوا «بالنظر فيما ورد في النصوص التي حفظها الناس في تحليلاتهم للغة هو الذي يميّز العلوم اللسانية العربية في زمان ازدهارها الأول من نفس العلوم التي ظهرت عند اليونان من قبلهم (وهي الفيلولوجية) ومن تلك التي غلب عليها عند العرب التقليد والجمود بعد إغلاق باب الاجتهاد عليها في عصور الانحطاط للفكر العربي. فاللغة كما يتصورها المبدعون من علمائنا أمثال الخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم ممّن ظهر في الصدر الأول، هي قبل كل شيء استعمال ثم استعمال الناطقين بها أي إحداثهم لفظا معيّنا لتأدية معنى وغرض في حال الخطاب تقتضي هذا المعنى وهذا اللفظ وليست فقط صوتا و لا نظاما من القواعد و لا معنى مجردا من اللفظ الذي يدل عليه و لا أحوالا خطائية معزولة عن كل هذه الأشياء»¹.

فالنحاة الأولون نظروا في اللفظ والمعنى من جهة الوضع، كما اهتموا بدراسة اللغة باعتبارها خطابا أي من خلال النظر في اللفظ والمعنى من جهة الاستعمال، في هذا السياق يقول الحاج صالح: «للعلماء العرب نظرة أخرى هي أدق وأجمع لأنّها لا تفصل بين الأركان الثلاثة بسبب خصوصية كل واحد منها كما يفعل موريس وبيرس بل يجمعون بين التراكيب والدلالة أي اللفظ والمعنى وينظرون فيهما معا من جهتين: في الوضع وفي الاستعمال»².

وبهذا فمنهج النحاة الأولون منهج متميز عن منهج النحاة المتأخرين وعن غيره من المناهج في البحث اللساني الحديث، وذلك لأنّه يجمع بين «النظر في اللغة كظواهر أي الظواهر اللغوية وهي

1- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 175.

2- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص. 215.

ههنا كلام العرب كما سُمع ونطقوا به من الجانب الاستعمالي والاجتماعي ومن حيث هو أصوات ذات مخارج ولغات متنوعة (تنوعات لغوية)، وبين النظر فيما يلزم من العمليات لصوغ (أو لتوليد) الوحدات اللغوية فيما سمّوه بالحدود وهي ضوابط العربية¹. كما أنّ «هذين الجانبين من الدراسة العلمية للغة انفرد بالجمع بينهما العلماء العرب المتقدمون. ولم يستطع أي جيل من العلماء غير العرب إلى غاية الآن أن يجمعوا بينهما أي بين النظر في اللغة كظواهر والنظر فيها كنظام ضوابط. فمن البين أنّ الكلام هو في ذاته مجموعة من الظواهر المحسوسة تشاهد بالسمع وبالبصر في مختلف أحوال التخاطب إلا أنّ اللغة هي أيضا أداة معقّدة تتكوّن من بُنى تتداخل فيما بينها على مراتب وهي أيضا معيار خاص بالناطقين بها. فهي تخضع لما تواضع عليه الناطقون باللغة وخاصة النظام البنوي فيه»². وبهذا يتبين لنا أنّ منهج العلماء العرب في التحليل هو منهج فريد لا نظير له لأنّه يجمع بين النظر الجانبين الوضعي والاستعمالي.

والتأمل العميق في كتاب سيبويه يكشف للقارئ أنّه «... ليس مجرد عرض لقواعد العربية كما هو معروف بل هو عمل تحليلي علمي لأنّه دراسة موضوعية "لمجاري كلام العرب" كما ورد على ألسنة العرب وكما سمعه وجمعه العلماء قبله وفي زمانه ... فهو عمل علمي لأنّه وصف تحليلي وتصنيفي وتفسيري لهذه المجاري من جهة، ومحاولة لضبطها بضوابط دقيقة من جهة أخرى. وهذا يقتضي النظر في الآلاف المؤلفة من الأنحاء (أو النحو) بعد حصرها وتبويبها ثم استنباط ما استمرّ منها في كل باب وما شدّ منها»³.

1- عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، ص. 04.

2- نفسه، ص. 04.

3- عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، ص. 03 - 04.

وبهذا فـ «التحليل اللساني عند سيبويه لا يجري على سَنَنِ واحد، فهو يتناول الكلام من زاويتين مختلفتين، وإن كانتا متكاملتين، يتناوله من زاوية لفظية (بنوية أو صورية)، تتعلق ببنية اللفظ، كما يتناوله من زاوية وظيفية (تبليغية أو خطابية)، تتعلق بتبليغ المقاصد إلى السامع، وقد يجمع سيبويه بين الزاويتين في الموضوع الواحد، دون أن يخلط بينهما لأنهما -عند سيبويه- جانبان مختلفان، وهذه النظرة الدقيقة إلى التحليل اللساني عند سيبويه لم نجد لها -في حدود اطلاعنا- إلا عنده، وهي نظرة تساعد على فهم كلام سيبويه من جهة، وعلى تفسير الكثير من التناقضات، التي وقع فيها الكثير من الباحثين، عند حكمهم على التحليل النحوي عند سيبويه»¹. فالمطلع على كتاب سيبويه مثلاً يجده يُحلّل اللغة بوصفها نظاماً مجرداً وباعتبار أنّها تراكيب وألفاظ تجمع بينها علاقات شكلية، كما يجده أيضاً يُحلّل التراكيب باعتبارها خطاباً متبادلاً؛ أي كما سمعه من أفواه الناطقين.

4.2. تحريف مفاهيم وتصورات من سبقهم من النحاة

لم يأت أغلب النحاة المتأخرين بالجديد، بل عمدوا إلى مصنّفات من سبقهم وحاولوا شرحها. وليت المعضلة توقفت عند حد جمود الإبداع بل تجاوزت ذلك إلى تشويه مفاهيم وتصورات من سبقهم، فكانت مؤلفاتهم نسخة محرفة للتصورات والأفكار التي جاء النحاة الأولون، فـ «أكثر المفاهيم اللغوية لم يتغير لفظها عند المتأخرين، وإنّما تغير محتواها، ومن ذلك على سبيل المثال مصطلح: لفظه وكلمة وقياس وباب وحد ومثال وبناء وأصل وكلام ولغة»². وبهذا سار النحو في اتجاه خاطئ وخطير مازالت عواقب ذلك تُلاحقنا إلى يومنا هذا.

1- محمد ولد دالي، قراءة التراث اللساني العربي عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، "عرض لآليات القراءة، وتحليل لكيفية تطبيقها في فهم النحو العربي"، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع25، السنة الرابعة عشرة، رمضان 1438هـ، جوان 2017م، ص. 360 - 361.

2- محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، ص. 19.

ورغم أنّ الحقيقة هي تلك التي ذكرنا إلا أنّ «الجزء المتخلف من التراث قد طغى على الناس إلى يومنا هذا وصار هو المرجع الوحيد، وأهمّل الناس روائع الفكر العربي التي تركها لنا المبدعون من علمائنا الأوائل. وقد حاولنا في كتاب لنا أن نبين ما للفكر اللغوي الذي امتاز به أولئك العلماء من قيمة علمية لا يضاهيها إلا ما أبدعه العلماء الغربيون في أحدث أعمالهم بل قد تنقص هذه عن تلك من بعض الجوانب»¹.

لذا فنحن أمام حتمية اعتماد مؤلفات علمائنا الأوائل «فهذا الجزء من التراث الذي تعلقنا به إلى يومنا هذا وهو الجزء الذي يصل زماننا هذا بعهد الجُمُود والتقليد. فلا يزال الناس يرددون منذ أن ألف ابن مالك ألفيته وتسهيله نفس العبارات ولم يدخل أي جديد لاقتناعهم بأنّ الاجتهاد قد أُغلق بابه على شروح الألفية وكتب ابن هشام!»².

وتبعاً لما سبق، يتعين على التربويين مراجعة المادة النحوية التي تقدم للتلاميذ والطلبة، فـ «النحو النظري الذي ينبغي أن يُعتمد هو نحو الخليل وأتباعه، [غير أنّ] المبرمج للمادة اللغوية يعتمد كما قلنا على التحليلات التي تركها لنا علماء النحو والبلاغة إلا أنّه يعتقد —مقلداً في ذلك من جاء قبله منذ أقدم عصور الانحطاط— أنّ أحسن المراجع في ذلك هي تلك التي ألفها العلماء المتأخرون (ممن ينتمي إلى هذه العصور الحالكة)»³، وذلك لأنها تتميز ببساطة أفكارها ووضوحها إذا ما قارناها بكتب النحاة الأولون، والحقيقة أنّ «الكثير من الكتب العظيمة القيمة التي تناول فيها علماؤنا القدامى العربية بالتحليل والتعليل ككتاب سيبويه وشروحه أو نظرية علم النحو ككتاب الخصائص لابن جني وغيره هي كتب علمية محضة، ومن ثمّ لا يمكن استعمالها في تدريس العربية مباشرة لأنّ

1- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 183.

2- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 170.

3- نفسه، ص. 183 - 184.

محتواها علم نظري. إلا أنّ هذا العلم لا بدّ منه من جهة أخرى؛ إذ يعتمد عليه الباحث في صناعة تعليم اللغة كمرجع للوضع اللغوي العربي وللكيفيات المخالفة التي سمعت عن فصحاء العرب في استعمالهم لهذا الوضع»¹.

كما أنّه يجب أن «تُحيا المدرسة الخليلية بجعل أبواب أساسية من كتاب سيبويه (مع نبذ من شروحه) تحت متناول الطلبة، ولا يُكتفى بذلك، بل يحاول المختصون أن يقربوا المفاهيم والتصورات البديعة إلى الأفهام وذلك بالتعلق الوافي على هذا النصوص، ولا يفوت المعلق التنبيه على المذاهب الحديثة ومدى التقارب و الابتعاد بينها وبين المدرسة العربية (وبيان أصالتها في كل هذه المحاولات»².

3. دعوة بعض المعاصرين إلى ترك المفاهيم الأصيلة

تواصلت الحملات على التراث العربي الأصيل، فبعد أن شوّه بعض النحاة المتأخرين جوهر المفاهيم النحوية الأصيلة، جاءت دعوة بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بالمناهج والتصورات الغربية «إلى ترك الكثير من المفاهيم التي جاءت في التراث فتهجموا على أصح هذه المفاهيم، إذ ظهرت في عصر الازدهار الفكري العربي وانتقدوها انتقادا تعسفيا اعتمدوا فيه على بعض النظريات الغربية في اللسانيات من تلك التي تجاوزها الزمان في هذا النصف الثاني من القرن العشرين فأخطأوا الغرض!»³. وفي هذا السياق نجد الباحث المغربي طه عبد الرحمن يتعجب من ذلك «الانقلاب في القيم بين المشتغلين بتقوم التراث، فما كان يجب أن يعظّم من معان متأصلة، ذهبوا إلى تحقيره من غير تحسر، وما كان يجوز تحقيره من وسائل مقتبسة، ذهبوا إلى تعظيمه من غير تقتر، كأنّما هم

1- نفسه، ص. 182.

2- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص. 173.

3- نفسه، ص. 170.

يتنافسون في تشييط العزائم وتفريق الشمل عند مخاطبيهم، أولا يعلمون أنهم لا يعظمون بالتكرار للتراث ولا يظهرون بالقدرح في أهله؟¹.

فمن المؤسف حقا أن نجد بعضا من الباحثين لا هم لهم سوى القدرح في التراث والعمل على توجيه الفكر العربي نحو التقليد والتبعية للفكر الغربي، ولا أدل على ذلك من تقويمهم المعكوس للتراث، إذ عملوا على التقليل من قيمة بعض المفاهيم التراثية التي تضاهي أحدث ما وصل إليه البحث اللغوي الغربي وتتجاوز أحيانا، ومقابل ذلك قدسوا المفاهيم الدخيلة على التراث العربي كتلك المقتبسة من المنطق اليوناني.

ومما لاشك فيه أنّ سبب دعوة أولئك الباحثين إلى تجاوز كل ما عربي تراثي أصيل هو جهلهم بالتراث «وقلة اطلاعهم على معارفه وضعف استئناسهم بمقاصده، لا ينزع فيهما إلا من هو أقل علما وأضعف أنسا. ولا أدل على ذلك من أمرين: قلق عبارتهم ونقص عملهم؛ أما قلق عبارتهم، فينطق به ما أنشأوا من أقوال لا تستقيم على أصول التبليغ العربي السليم، فكيف يصح إذن لمن لا يجيد لغة التراث أن يدعي لنفسه القدرة على تقويمه! فمن أين يقع على حقيقة مضامينه وعلى كنه آلياته! وأما نقص عملهم، فينبئ عنه اتّباعهم الشاذ والغريب من الأقوال؛ فلا يطلب الشاذ إلا من يريد الزيع عن الحق والمروق، ولا يطلب الغريب إلا من يريد المخالفة والظهور»². فالجعل لمضامين المفاهيم والتصورات العربية هو الذي حمل أولئك الباحثين على رمي التراث العربي بالضعف والوهن، وما صاحب تلك الدعوة من أقوال وأفكار وتصورات يكشف عن عدم إلمامهم به.

هذا ومن بين أسباب الدعوة أولئك الباحثين إلى تجاوز المفاهيم التراثية الأصيلة تعصّبهم لمذهب غربي معين أو لفكرة ما بحيث إنّ «العديد من الباحثين رفضوا الدراسات اللغوية العربية القديمة

1- طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص. 11.

2- طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص. 10.

ويعود ذلك لتأثرهم بالمناهج الغربية إذ إنهم وجدوا فيما صح من نقد الأوربيين لتراثهم النحوي ينسحب على التراث النحوي العربي، كما صح عندهم أن التراث النحوي العربي تضمن العيوب نفسها التي تضمنها التفكير النحوي الأوربي القديم. ولم يتخذ هذا المنطلق في عمل الوصفين العرب شكل الافتراض، بل كان حاضرا لديهم حضور البديهة، فكان بذلك منطلق كل الكشف عن جوانب من التفكير اللغوي عند العرب دراساتهم¹.

غير أنّ ما فات أولئك الباحثين هو أنّ التراث العربي يملك من الخصوصية ما يجعل من المناهج والأدوات الغربية قاصرة عن تقويمه ودراسته، غير أنّ تلك الخصوصية لا تعني أن تُقصي هذا التراث وتجاوزته، بل هي خصوصية تسمح له أن يُحاور المقولات الغربية إذا كان المنطلق في ذلك هو مُراعاة الاختلاف بين الفكرين العربي والغربي، و«الابتعاد عن التعسف في تطبيق [تلك المناهج] ... على مفاهيم التراث تطبيقا قسريا، مع إبداء التحفظ الواجب الذي يفرضه استصحابنا للوعي باستقلالية التراث العربي، فلا يجوز أن ننسى أنّ لهذا التراث خصائص إبستمولوجية تجعل منه منظومة مستقلة ومتميزة ومتكاملة»².

الخاتمة

وخلاصة الكلام أنّ الواجب يفرض علينا إعادة إحياء المفاهيم التصورات النحوية الأصيلة التي غاب بعضها وحُرّف جوهر بعضها آخر في كتب النحاة المتأخرين، وإعادة تصحيح المسار الخاطئ الذي سار فيه النحو العربي بعد نهاية القرن الرابع الهجري. فإذا كان النحاة الأولون قد أفنوا أعمارهم في خدمة اللغة العربية، ألاّ نستطيع نحن في مقابل ذلك أن نعيد إحياء المفاهيم العلمية التي جاؤوا بها ونقربها إلى الأفهام، وننبه على مدى التقارب و التباعد بينها وبين ما جاء به النحاة المتأخرين.

1- حافظ إسماعيلي علوي، النحو العربي واللسانيات الوصفية، مجلة فكر ونقد، ع72، أكتوبر، 2005م، ص. 54.

2- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (2005)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، ص. 08.

كما أنّ القيمة العلمية للمفاهيم النحوية -التي يبطلها مرور زمن ولا بروز نظريات جديدة- تفرض علينا العودة إليها والتعامل معها كمفاهيم لها خصوصية -انبثقت من خصوصية التراث العربي الأصيل- تجعل من المناهج والأدوات الغربية قاصرة عن تقويمها ودراستها.

المصادر والمراجع

1. محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح "قراءة في بعض النماذج"، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع25 السنة الرابعة عشرة، رمضان، 1438هـ، جوان، 2017م.
2. عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (2007)، المؤسسة للفنون المطبعية الجزائر، د ط، ج1.
3. عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رعاية، الجزائر، د ط..
4. صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، ط 6، الجزائر: 2011.
5. عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، (2016)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، د ط.
6. ابن هشام الأنصاري، مُغني اللبيب عن كتب الأعراب، (1991)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج1.
7. محمد ولد دالي، قراءة التراث اللساني العربي عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، "عرض لآليات القراءة، وتحليل لكيفية تطبيقها في فهم النحو العربي"، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، ع25، السنة الرابعة عشرة، رمضان 1438هـ، جوان 2017م.

8. طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2.
9. حافظ إسماعيلي علوي، النحو العربي واللسانيات الوصفية، مجلة فكر ونقد، ع72، أكتوبر، 2005م.
10. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (2005)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1.